

الحجاج في القرآن الكريم (قصة موسى والخضر -عليهما السلام- أمودجا)

The pilgrims in the Holy Qur'an (the story of Moses and Al-Khidr - peace be upon them both - as a model)

إعداد الباحث/ الخضير محمد عبد الرحمن

ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر، دولة قطر

Email: em2009637@qu.edu.qa

المخلص:

يدرس هذا البحث الكشوف عن جوانب حجاجية جديدة تساعد في تعميق البحث في سورة الكهف بشكل عام وقصة موسى والخضر على وجه الخصوص. اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، نسبر أغوار الظاهرة الحجاجية ونربطها بالنص القرآني، ثم نرى مدى مطابقتها له، من خلال دراسة الأسلوب القصصي والواقعي والكشف عن الطرق الإقناعية في الحوار الإقناعي. تناولت في هذا البحث مفهوم الحجاج من حيث اللغة والاصطلاح، وحاولت أن أوضح مدى الاختلاف الحاصل بين العلماء والدارسين قديما وحديثا في تحديد المراد بالحجاج، وبينت أنواع الحجاج، وذلك اعتمادا على تعريفاته عند العلماء والباحثين. ووضعته تحت عنوان: الطرق الحجاجية وقصة موسى والخضر، وفيه مطلبان: المطلب الأول: بينت فيه الأسلوب الحجاجي المتبع في قصة موسى والخضر. المطلب الثاني: خصصته لتبيان حجة روابط التابع أو التعاقب في قصة موسى والخضر. وتكمن أهمية الحجاج فيما يولده من اقتناع لدى المتلقي، الذي لا يتأتى له إلا باستعمال اللغة، مما يؤكد أن نظرية الحجاج في اللغة تنطلق من فكرة أننا نتكلم عامة بقصد التأثير، وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية.

ويهدف هذا البحث إلى الكشوف عن جوانب حجاجية جديدة تساعد في تعميق البحث في سورة الكهف بشكل عام وقصة موسى والخضر على وجه الخصوص. كما يهدف كذلك إلى إثراء الدراسات القرآنية والدراسات المتعلقة بالتفسير البلاغي والحجاجي. فضلا عن أنه يسعى إلى فتح الآفاق أمام الباحثين والدارسين للوقوف على أساليب القرآن الكريم في الحجاج، والنظر في مراميه ومقاصده. وقد توصل البحث إلى عدة نتائج أهمها: أن هناك خلاف كبير بين العلماء قديما وحديثا حول تحديد مفهوم للحجاج، هل هو مرادف للجدل والمناظرة أم خلافهما؟. أهم ما تقوم عليه الدراسة الحجاجية في القرآن الكريم، هو تقديم الأطروحات التي تدعو العقول إلى التدبر الموضوعي والواعي بغية الاقتناع وبناء الرأي المعقول.

الكلمات المفتاحية: موسى والخضر، الحجة البراغمية، خرق السفينة، قتل الغلام، إقامة الجدار، الفعل الإنجازي.

The Pilgrims in the Holy Qur'an (The Story of Moses and Al-Khidr - Peace be upon them both - as a Model)

Abstract:

This research studies the discovery of new argumentative aspects that help deepen the research on Surat Al-Kahf in general and the story of Moses and Al-Khidr in particular. In this research, I relied on the analytical descriptive approach. We explore the depths of the argumentative phenomenon and link it to the Qur'anic text, then see the extent of its conformity to it, by studying the anecdotal and realistic method and revealing the persuasive methods in the persuasive dialogue. In this research, I dealt with the concept of pilgrims in terms of language and terminology, and tried to explain the extent of the difference between scholars and scholars, ancient and modern, in defining what is meant by pilgrims, and showed the types of pilgrims, depending on its definitions among scholars and researchers.

And I put it under the title: The Pilgrim Paths and the Story of Musa and Al-Khidr, and it has two demands: The first requirement: I explained in it the argumentative method used in the story of Moses and Al-Khidr. The second requirement: I devoted it to explaining the argument for the succession or succession links in the story of Moses and Al-Khidr. The importance of arguments lies in the conviction it generates in the recipient, which can only be achieved through the use of language, which confirms that argumentative theory in language stems from the idea that we speak in general with the intention of influencing, and that the basic function of language is argumentation, and that the meaning is of an argumentative nature.

This research aims to reveal new argumentative aspects that help deepen the research on Surat Al-Kahf in general and the story of Moses and Al-Khidr in particular. It also aims to enrich Quranic studies and studies related to rhetorical and argumentative interpretation. In addition, it seeks to open horizons for researchers and scholars to find out about the methods of the Holy Qur'an in pilgrims, and to consider its goals and objectives. The research reached several results, the most important of which are: That there is a great disagreement between scholars, past and present, about defining the concept of pilgrims, is it synonymous with controversy and debate,

or a disagreement between them? The most important thing on which the argumentative study in the Holy Qur'an is based is presenting theses that invite minds to objective and conscious contemplation in order to be convinced and build a reasonable opinion.

Keywords: Musa and al-Khidr, the pragmatic argument, breaching the ship, killing the boy, erecting the wall, the act of achievement.

1. مقدمة

بعد الاطلاع على أهم المحطات التي مر بها الحجاج اللغوي، بداية مع الفلاسفة اليونان، مروراً بالحضارتين العربية الإسلامية والغربية. وإلى يومنا هذا، يتضح جلياً أن الحجاج شكل على الدوام ضرورة إنسانية، اقتضتها طبيعة الجماعة البشرية، فهي على اختلاف لغاتها، ودرجة تطورها، وتباين عقلياتها، تصبو دائماً فيما بينها، وفي محاوراتها مع غيرها، إلى إقناع الآخر حول ما تبسطه من آراء ورؤى ومفاهيم، وتحمله على الإذعان لها؛ تلك طبيعة البشر في كل زمان ومكان.

وقد تجلت هذه الظاهرة بأوضح ما يكون في الخطاب القرآني، فما زال القرآن وسيقى على مر الأزمنة والعصور، يحاج العقول بشتى الطرق بالحجة والبرهان، بالأمثال والحكم، بالرمز والتصوير، ليدعم إيمان المؤمن ويلطف من عناد الكافر.

وبما أن القرآن الكريم يعتبر المصدر الأول للتشريع لدى الأمة الإسلامية، تتوقف سعادتها على العمل به ومعرفة أسرارها، فلم يستو الناس جميعاً في فهم ألفاظه، مع بيانه الواضح، وآياته المفصلة، فإن تفاوت إدراكهم أمر لا شك فيه. فالعامي لا يدرك إلا ظاهر المعاني ومجمل الآيات، والذكي الحاذق من يستخرج من تلك المعاني معاني ودلالات دقيقة لطيفة، فلا غربة إذن أن يجد القرآن في الأمة اهتماماً بالغاً بالدراسة تفسيرا وتأييلاً، والاعتماد عليه كذلك من علماء العربية وأساطين الشريعة في إثبات الأصول اللغوية باعتباره الحجة الأولى لإثبات اللغة وتحريم قواعدها.

وإذا كان علماء اللغة والشريعة قد اهتموا باللغة في مستوياتها المختلفة، فإن الدرس التداولي أصبح ثرياً جداً مع نهاية القرن الماضي، وذلك بما يقدمه من إجراءات على مستوى الاستعمال اللغوي الطبيعي، وعلى مستوى تحليل الخطاب والحجاج اللغوي.

والحجاج اللغوي هو الذي أعطى الدرس التداولي الاهتمام البالغ، يتضح ذلك من خلال العودة القوية للبلاغة تحت تسمية البلاغة الجديدة، حيث ركزت على جانبي "البيان والحجاج" باعتبارهما وسيلتين مهمتين من وسائل الإقناع؛ إذ فرقت هذه الدراسات بين مفهوم "الجدل" و"الحجاج".

لقد أولى اللغويون والبلاغيون والمناطقية والفلاسفة والأدباء، وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وغيرهم، الحجاج اهتماماً واسعاً في الآونة الأخيرة، فأصبح لدينا حجاج لغوي، وحجاج بلاغي، وحجاج منطقي، وحجاج فلسفي... إلخ. ومن هذا الاعتبار يمكن عد الخطاب القرآني خطاباً حججياً، لأنه جاء رداً على خطابات تعتمد عقائد ومناهج خاطئة، فهو يطرح أمراً أساسياً يتمثل في عقيدة التوحيد، ويقدم الحجج بمستويات مختلفة، والمدعمة ضد ما يعتقد المتلقون من مشركين وملحدين، ومنكرين للنبوّة ومجادلين.

ولعل في اختلاف مستويات التلقي هذه ما يؤكد الصفة الحجاجية للقرآن؛ لأنها خاصة أساسية من خصائص الخطاب الإقناعي، الذي يعرفه درس الحديث من الناحية الوظيفية من حيث إنه موجه للتأثير على آراء وسلوك المخاطب.

ثم إن اللغة - كما يرى أغلب الباحثين - ليست مجرد أداة للتعبير فقط، وإنما هي حقيقة حجاجية، فهذا ما يؤكد الأساس الذي بنيت عليه لغة القرآن، من حيث هي لغة وحجة بالغة حسبما يرى علماء الإعجاز القرآني، أو ما يمكن إدخاله ضمن ما تهدف إليه سيميائيات التواصل بدراسة أساليب التواصل؛ أي الوسائل المستعملة بهدف التأثير.

لقد استطاع الخطاب القرآني أن يفتح ظاهرة التواصل على شؤون الإنسان في تجدها وتطورها المسترسل، ليحقق معادلة هامة يتفاعل بمقتضاها الأصل الثابت مع الفرع المتغير متخذاً الإقناع سبيلاً يسلكها في استقطاب الناس نحو عقيدة الإسلام، واستطاع أن يؤثر في متلقيه لاعتماده استراتيجيات تواجه روح المتلقي وعقله وضميره، كما أن حسن توزيع وتوظيف الآليات اللغوية، وبالمقدار المطلوب جعله أنموذجاً لدراسات مختلفة - كما تقدم - كان من بينها الدراسات البلاغية والدراسات المتعلقة بالإعجاز التي ركزت على معالجة بناء الخطاب، وطرائق الصياغة.

1.1. إشكالية البحث:

إن الأفكار التي أوحى بها هذه المقدمة هي التي مثلت إشكالية أساسية جاء هذا البحث لمحاولة الإجابة عنها، وهي:

1- ما مفهوم الحجاج وأنواعه؟

2- إلى أي مدى استعمل القرآن الكريم الأساليب الحجاجية في تقرير المسائل الدينية؟

3- كيف تشكل الأسلوب الحجاجي في قصة موسى مع الخضر؟

4- ما السبيل الحجاجي الذي اتبعه الخضر في من خلال محاورته مع موسى؟

5- ما أنواع الحجج وأقسامها؟

- كيف تجلت روابط التتابع أو التعاقب في قصة موسى والخضر؟

7- أين تجلت الطرق الحجاجية في قصة موسى والخضر؟

2.1. أهمية الموضوع وأهدافه:

مما لا شك فيه أن البحث الحجاجي في القرآن الكريم بشكل عام له أهمية بالغة، للوقوف على أسرار هذا الكتاب العظيم، وسبر أغواره، عل ذلك يساعد المستكشف على تدبره واتباع أوامره واجتناب نواهيه.

ثم إن القرآن باعتباره المصدر الأول من مصادر اللغة، فمما لا شك فيه أن بحث هذا الموضوع سيكون له دور مهم في كشف إثراء البحث الدلالي والبلاغي اللغوي بمعان وأساليب خطابية وإقناعية جديدة، هذا من جهة.

من جهة أخرى فإن التركيز على جزء من القصص القرآني بالبحث والتدبر والكشف عن معانيه ومضامينه البلاغية، يكتسي أهمية إضافية من حيث إن ذلك مساعد على تعميق البحث لاستنباط أكبر قدر من المعاني، خصوصا إذا كان ذلك الجزء أو القصة لم تعط حقها من البحث في الحقل البلاغي، كما هو حال قصة موسى والخضر من منظور حجائي.

وبشكل عام يمكن إجمال أهمية بحث هذا الموضوع في النقاط التالية:

1- الكشف عن جوانب حجائية جديدة تساعد في تعميق البحث في سورة الكهف بشكل عام وقصة موسى والخضر على وجه الخصوص.

2- إثراء الدراسات القرآنية والدراسات المتعلقة بالتفسير البلاغي والحجائي.

3- فتح الآفاق أمام الباحثين والدارسين للوقوف على أساليب القرآن الكريم في الحجاج، والنظر في مرامييه ومقاصده.

3.1. منهج الدراسة:

اعتمدنا في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، نسبر أغوار الظاهرة الحجائية ونربطها بالنص القرآني، ثم نرى مدى مطابقتها له، من خلال دراسة الأسلوب القصصي والواقعي والكشف عن الطرق الإقناعية في الحوار الإقناعي.

المبحث الأول: مفهوم الحجاج وأنواعه:

المطلب الأول: مفهوم الحجاج:

تقاربت نظرة الدارسين اللغويين لمفهوم الحجاج في اللغة خاصة، ورأى بعضهم أنه يضارع الجدل والبرهان، فيما ذهب البعض الآخر إلى عدم التطابق بين تلك المفاهيم، وأن لكل منها معنى خاصا به، وإن تلاقت معانيها أحيانا وتقاربت في بعض السياقات، ولتبيان حقيقة ذلك سنعرض مفهومي الحجاج في اللغة والاصطلاح.

أولا: الحجاج في اللغة:

الحجاج في اللغة من حاج يحاجج حجاجا، قال ابن سيده: "الحجة: ما دافع به الخصم، والجمع حجج وحجاج، وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة، وحجه يحجه حجا: غلبه على حجته، وفي الحديث " فحج آدم موسى " واحتج بالشيء: اتخذ حجة"¹.

قال ابن منظور: "حاجته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حجته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها... الحجة: البرهان؛ وقيل: الحجة ما دافع به الخصم؛ وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محجاج أي جدل. والتجاج: التخاصم؛ وجمع الحجة: حجج وحجاج. وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة. وحجه يحجه حجا: غلبه على حجته.

¹ - ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م، مادة: "الحاء والجيم".

وفي الحديث: فحج آدم موسى؛ أي غلبه بالحجة. واحتج بالشيء: اتخذ حجة؛ قال الأزهرى: إنما سميت حجة لأنها تحج أي تقتصد لأن القصد لها وإليها؛ وكذلك محجة الطريق هي المقصد والمسلك. وفي حديث الدجال: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه؛ أي محاجه ومغالبه بإظهار الحجة عليه. والحجة: الدليل والبرهان. يقال: حاجته فأنا محاج وحجيج، فعيل بمعنى فاعل. ومنه حديث معاوية: فجعلت أحج خصمي؛ أي أغلبه بالحجة².

يتضح مما سبق أن الحجاج في اللغة هو أسلوب من الأساليب الإقناعية يؤسس للدفاع عن الأفكار التي يعرضها المتكلم بهدف التأثير في المتلقي وإمالة إلى التصديق بأمر ما والتسليم به.

وهو بذلك آلة تجسد الخطاب الإقناعي، وتكمن أهميته فيما يتأكد من إقناع لدن المتلقي عن طريق اللغة، مما يؤكد "أن نظرية الحجاج في اللغة تنطلق من فكرة مفادها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير، وأن الوظيفة الحجاجية للغة هي الحجاج، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية"³.

ثانياً: الحجاج في الاصطلاح:

أما في الاصطلاح، فقد تباينت آراء العلماء والباحثين حول مفهوم الحجاج بحسب الزاوية التي ينظر إليه منها: البلاغية واللسانية والفلسفية والأصولية، وهو ما أدى إلى ظهور العديد من المفاهيم المتعددة التي أثرت حقل الدراسات اللسانية بصفة عامة والدراسات الحجاجية بصفة خاصة.

وسنورد هنا بعض تعريفات الحجاج عند الأقدمين والمعاصرين، سبيلاً إلى الكشف عن طبيعة تلك التعريفات ومدى اتفاقها واختلافها، لخدمة ما نصبو إليه من خلال هذا البحث.

أ- مفهوم الحجاج عند القدماء:

إن الناظر في مفهوم الحجاج في اصطلاح العلماء الأقدمين، يجد أنهم جعلوه مرادفاً لمفهوم الجدل والمذهب الكلامي، وهذا ما نجده واضحاً من خلال استخدام كثير من العلماء لمفهوم الحجاج، مثل الباجي، والسيوطي، وابن أبي الإصبع المصري⁴، الذي عرف المذهب الكلامي تعريفاً يقترب به كثيراً من مفهومي الجدل في المنطق وأصول الفقه حيث قال: "إنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام، ومنه نوع منطقي تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة"⁵.

2 - ابن منظور، لسان العرب، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، مادة: "حج".

3 - عبد الهادي بنزاف الشهري، استراتيجيات الخطاب، عن سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، وزارة الثقافة والاتصال المغربية، السنة: 25، العدد: 62 - 63، صفر 1422 هـ - مايو 2001، ص: 142 - 143.

4 - ينظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات: كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة - تونس، الطبعة الأولى: 2001، دار الفارابي، ص: 12 - 14.

5 - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص: 14.

ومن هنا يظهر أن لفظ الحجاج كان مرادفاً عند العلماء القدماء للجدل، وقد استمر هذا المنحى في بعض الدراسات العربية الحديثة كما هو الحال عند الهادي حمو في كتابه مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم⁶.

لكن هذه النظرة الترادفية قد تضيق مجال الحجاج وتغرقه في الجدل من حيث هو صناعة منطقية، ومن حيث هو على العموم معرفة بالقواعد الاستدلالية التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، والحال أن الحجاج أوسع من الجدل⁷ كما سيأتي.

ب - المفاهيم الحديثة للحجاج:

في العصر الحديث برزت مفاهيم أخرى للفظ الحجاج تختلف عن النظرية القائلة بالترادف بينه ومفهوم الجدل، تركز أساساً على مفهومين:

الأول: أن الحجاج أوسع من الجدل، فكل جدل حجاج، وليس كل حجاج جدل، فالحجاج هو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة من حيث إنهما قوتان لإنتاج الحجج، وإن كان نوع الحجة في الجدل يختلف عن نوع الحجة في الخطابة.

فالحجاج الجدلي: مداره على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد، ويمثله في التراث العربي والإسلامي مناظرات علم الكلام والمناظرات الفقهية، وهو موجود في القرآن الكريم بكثرة.

وأما الحجاج الخطابي: فهو حجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة، في مقامات خاصة، والغاية منه ليس التأثير النظري العقلي، وإنما التأثير العاطفي وإثارة المشاعر والانفعالات وإرضاء الجمهور واستمالتة ولو كان ذلك بمغالطته وخداعه وإبهامه بصحة الواقع⁸.

الثاني: أن للحجاج طريقاً آخر غير "التي تربطه بالخطابة وهي موضع اتهام بكونها مناورة، وغير التي تربطه بالجدل وهو موضع اتهام بالقصور عن الإمام بكل ما ينشأ في خطاب اللغات الطبيعية من وجوه المحاججات"⁹.

ومع ذلك فإن بعضاً من أصحاب هذا الاتجاه - وخصوصاً الباحثين برلماناً وتيتيكا - لم يجعلوا الحجاج منفصلاً بالكلية عن صناعتي الجدل والخطابة، وإن اعتبرها أحياناً أقرب إلى صناعة الخطابة، بل أطلقوا عليه في مواضع أخرى عبارة: "الخطابة الجديدة" مع كل ما يقتضيه لفظ "جديد" عادة من قطيعة مع القديم.

⁶ - ينظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص: 14 - 15.

⁷ - ينظر: المرجع السابق، ص: 15 - 16.

⁸ - ينظر: المرجع السابق، ص: 17 - 18.

⁹ - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص: 20.

ومهما يكن من أمر فإن برلمان وتيتيكا لا يعتبران الحجاج مناورة وتلاعبا بعقل المخاطب¹⁰، فهما يريان أن "موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"¹¹.

فمفعوم الحجاج عندهما يستند إلى صناعة الجدل من ناحية، وصناعة الخطابة من ناحية أخرى، بكيفية تجعل الحجاج شيئا ثالثا لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة.

إن نظرية الحجاج التي طورها كل من برلمان وتيتيكا كانت من أهم النظريات التي انبثقت عما بات يعرف ببحوث البلاغة المعاصرة التي تهتم أساسا بأساليب إجراء اللغة وتنويع الخطاب ومقاماته وطبائع الناس المخاطبين بكل لفظ معين، وهو ما فرض على أصحاب نظرية الحجاج، ضرورة التوسل بكثير من الآليات المعتمدة من حقول معرفية مجاورة للبلاغة واللغة، ولهذا كان لمفهوم التداخل المعرفي دور أساسي في طرحهم، لأن كل عملية حجاجية من المتحتم أن تتخذ آليات متعددة يتفاوت إدراك المخاطبين ووعيمهم بها، كل هذه التقنيات الجديدة في علاقة المتكلمين بالمخاطبين¹².

وبالتزامن مع ذلك ذهب الباحث ماير إلى طريق جديد حاصله: أن "الحجاج هو دراسة العلاقة بين ظاهر الكلام وضمنيه"¹³، وقد اختص ماير في صياغته لمفهوم الحجاج عن غيره من الباحثين، بمحاولة ربط الحجاج بنظرية المساءلة. فما الحجة عنده إلا جواب أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمنيا من ذلك الجواب، ويكون ذلك بطبيعة الحال في ضوء المقام وبوحي منه، وما السؤال إلا عرقل أو مشكلة تتطلب حلا، وحلها إنما يكمن في الإجابة عنها إجابة يفهم منها ضمنيا أن حلول العرقل أو تلك المشكلة موجودة، بحيث لا يكون المتلقي في نهاية المطاف إلا طارح أسئلة يستنتجها ضمنيا من خلال تلك الأجوبة المقدمة مستعينا بالمعطيات التي يوفرها المقام.

فيتبين من خلال نظرية المساءلة هذه التي صاغها ماير أن ظاهر الكلام هو الجواب وضمنيه السؤال، ومثلما يكمن الضمني في صميم الظاهر يشف عنه المقام يكمن السؤال في صميم الجواب ويقع عليه المتلقي بمساعدة المقام.

فالحجاج إذا هو إثارة الأسئلة وإثارة الأسئلة هي الأساس عنده الذي يبنى عليه الجواب¹⁴.

فهذا هو حاصل المفاهيم التي حاول العلماء والباحثون قديما وحديثا صوغها وحملها اصطلاحيا على لفظ الحجاج، ورغم ما وجه لها أو لبعضها من نقد¹⁵ سواء فيما يتعلق ببنيتها المفاهيمية،

¹⁰ - ينظر: المرجع السابق، ص: 20 - 21.

¹¹ - المرجع السابق، ص: 27.

¹² - ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج مفهومه ومجالاته (نصوص مترجمة) عالم الكتاب الجديد، الأردن، 2010. 176/2.

¹³ - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص: 37.

¹⁴ - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص: 39.

¹⁵ - ينظر حول هذه الانتقادات: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص: 40 وما بعدها.

أو فيما يتعلق بحملها كلها أو بعضها على الأسلوب القرآني ومقاصده، إلا أنها مع ذلك تظل الحاضن للفظ الحجاج لا يخرج عنها إلا باعتبار الوجهة التي ينظر منها إلى طبيعة الخطاب ومآلاته، وهذا بالطبع يختلف بحسب المقام والأسلوب.

المطلب الثاني: أنواع الحجاج:

بعد ما سطرنا في الطلب السابق عن مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح، وبيننا من اختلاف حول تحديد المراد من مفهومه في الدراسات الحجاجية، نذكر هنا في هذا المطلب أنواع الحجاج اعتماداً على تلك المفاهيم، كما بينها العلماء والباحثون.

لقد صنف اللغويون الحجاج أنواعاً كثيرة، والذي يهمنا منها وله علاقة بما نحن بصدد بحثه الأنواع التالية:

- الحجاج المنطقي.

- الحجاج شبه المنطقي.

- الحجاج اللغوي.

- الحجاج المؤسس على بيئة الواقع.

أولاً: الحجاج المنطقي:

هو أول وأسبق أنواع الحجاج ظهوراً، ويعتمد في هذا الجانب على منطق خاص باللغات الطبيعية وينقسم إلى نظريتين:

1 - اللسانيات النفسية المعرفية: بحثها خاص بتحليل الخطاب والمحادثة قصد التواصل إلى منطق التفكير في اللغة الطبيعية،

هذا ما فسر به "جورج فنينيو وفريديريك ناف مفهوم التضمن الذي عدوه سمة قارة في تلك الأبحاث، ويعني غرايس بهذا

"إجراء حساب المفهوم الذي يضعه المخاطب انطلاقاً من كلام المتكلم ومن منظور المحادثة أو الحوار الذي يماثل قواعد

المحادثة التي تعارف عليها المتكلمون في إطار ثقافي واحد، والحادثة كما أشار إليها "صابر الحباشة" تقوم بدور المقدمة

الصغرى في "القياس، وبطبيعة الحال فإن كل تلفظ يطابق حكم المحادثة، فالتأويل للمفوضات يمكن التعبير عنه بشكل استنتاجي

قياسي.

وهنا تكمن الخاصية الإضمارية للقياس التي تفسر بحال ضمني أو المقتضي في القضية الجديدة من حكم المحادثة، والتضمن

بحكمه استدلال أو مثال عنه يستطوع إعطاء حجة منطقية أرسطية نوعية جديدة وفريدة¹⁶.

¹⁶ - صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مدخل ونصوص، ط: دمشق - سوريا 2008، ص: 17.

ومن خلال ما سبق ندرك أن التكلم يعتمد على المنطق والمحادثة التي تشبه أو تحاكي طريقة الحوار المتعددة، وأنها في حال التكلم نراعي مقتضى الحال والمحادثة التي اصطلح وتواضع عليها أفراد الجماعة اللغوية عن طريق المنطق والاستنتاج والانتقال من مقدمات صغرى وصولاً إلى نتائج وقضايا جديدة تفرضها أحكام المحادثة¹⁷.

2 - علم الدلالة المنطقي: من أنصار هذا الاتجاه روبان مارتان الذي قام بإجراء تجربة عبارة عن تكيفات منطقية للحوارات اللغوية، بدءاً من إعادة تشكيل الحقيقة في العلاقات بين الجمل، وعلم الدلالة المنطقي عنده.

وقد ابتكر مارتان فكرة أخرى سماها عالم الاعتقاد، وهو أن المخاطب يستطيع رسم عالم خاص مضاد للواقع غير متجانس مع العالم الذي يعيشه، وهذا من اهتمام النظريات والتطبيقات الحجاجية في الخطاب، وأن علم الدلالة المنطقي قد استوعب الموضوع الأرسطي.

ومن خلال النظرين نستنتج أن المحادثة تقوم على عنصر الحوار، ولا بد من توفر شيئين: المخاطب والمخاطب، وما اصطلاحاً عليه من أفكار وألفاظ تكمن في التجربة اللسانية، أي أنها عبارة عن محاولة لغوية نستطيع تغيير قواعدها وتأويلها لأن نتائجها محتملة الوقوع منطقياً¹⁸.

ثانياً: الحجاج شبه المنطقي:

تتميز هذه الحجج الشبه منطقية بلامستها لقواعد المنطق، وتتسم بالنسبية وعدم الإلزام، لأن "الحجاج في جوهره ينبذ قانون الكل أو لا شيء؛ أي يرفض الصرامة في ضبط الحدود والفروق، ويجد في المنطقة الوسطى المتشعبة بالغموض تربة خصبة"¹⁹.

فهذه الحجج في جوهرها تقوم على النسبية، ولا يمكن أن تكون مطلقة، كما يمكن دحضها، وتستند في تأسيسها إلى بنى منطقية وأخرى رياضية.

1- الحجج الشبه منطقية التي تعتمد على البنى المنطقية:

يطبع هذه الحجج الاعتماد على المنطق الطبيعي، الذي هو جزء من البنية العقلية عند الإنسان، لا المنطق الصوري الأرسطي. وهي ثلاثة أنواع:

¹⁷ - ينظر: عبد الكريم زواقة، بلاغة الحجاج في القرآن الكريم، سورة الكهف نموذجاً، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي - الجزائر، 2010 - 2011، ص 22.

¹⁸ - المرجع السابق، ص: 23.

¹⁹ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، الناشر: عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العلمي للنشر والتوزيع، 2008، ص: 191.

- التناقض وعدم الاتفاق.

- التماثل والحد في الحجج.

- الحجة القائمة على العلاقة التبادلية.

2- الحجج الشبه منطقية التي تعتمد على البنى الرياضية:

تعتمد هذه الحجج على البنى الرياضية في تأسيس علاقاتها الداخلية وتلاؤمها، وهو ما يدعم قوتها الحجاجية بغرض الإقناع، وهي ثلاثة أنواع أيضا:

- حجج التعديدية والتضمن والتقسيم.

- حجة المقارنة.

- الحجج القائمة على الاحتمال²⁰.

ثالثا: الحجج اللغوي:

واعتماده على أن البيئة الحجاجية ليست ذات طبيعة منطقية؛ بل لها طبيعة لغوية محضة، أي أن الدرس اللغوي واللغة في ذاتها تحتوي على معلومات تتعلق بالحجاج هي التي تحدد فيما بعد حلقات الخطاب وتسلسله.

فالمفوضات خاصة بجانب حججها لها الحق في الدخول أو الانطواء تحت المجال اللغوي، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن المفوضات الحجاجية ليست مضافة إلى المفوضات، بل هي مسجلة في اللغة بوصفها أساسا لكل دلالة²¹.

رابعا: الحجج المؤسس على بنية الواقع

تتأسس الحجج المؤسدة على بنية الواقع على التجارب والوقائع والأحداث المتعلقة بين الأشياء المكونة للعالم. وتستند في أساسها إلى الواقع؛ "فالمتكلم متى اعتمد هذا الصنف من الحجج، إنما يذهب في الواقع إلى أن الأطروحة التي يعرضها تبدو أكثر إقناعا كلما اعتمدت أكثر على تفسير الوقائع والأحداث، وأن الخطاب الحجاجي يكون أنجع وأقدر على الفعل في المتلقي والتأثير فيه كلما انغرست مراجعه في الواقع وتنزلت عناصره فيما حدث وما يحدث"²².

ومعظم هذه الحجج تقوم على ترابطات التتابع أو التعاقب من قبيل علاقة السبب بالنتيجة (الحجج السببية أو البراغماتية)، "ويمثل بيرلمان لهذه الحجج بوجوه الاتصال التتابعي، بوصفها تضم مظاهر الاتصال السببي كالربط بين بعض الأحداث

²⁰ - ينظر: عبد الكريم زواق، بلاغة الحجج في القرآن الكريم، سورة الكهف نموذجاً، م، س، ص: 46 وما بعدها.

²¹ - ينظر: عبد الكريم زواق، بلاغة الحجج في القرآن الكريم، سورة الكهف نموذجاً، م، س، ص: 23.

²² - سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، م، س، ص: 214.

المتابعة بواسطة علاقات سببية أو استخلاص نتيجة ما بسبب حدث أدى إليها، أو التكهن بما سيقع لو أن الحدث المسبب قد حصل²³.

ويورد بيرلمان مثالا توضيحيا لهذه العلاقات وهو قوله: "اجتهد فنجح - نجح لأنه اجتهد - هو يجتهد فسينجح"²⁴.

وإلى وجوه الاتصال التتابعي تنتمي حجج أخرى مثل حجة التبذير وحجج الاتجاه، ووجوه الاتصال التوايدي التي تدخل فيها عدة أمور منها التداخل بين العمل والشخص²⁵.

"ويمكن أن تمثل لها بقوله - صلى الله عليه وسلم -: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، إذ يمكن أن نقول بأن المتعلم، بوصفه شخصا في جوهره، ليس فضوليا وعمل ترك ما لا يعنيه من تجليات حسن الإسلام"²⁶.

المبحث الثاني: الطرق الحجاجية وقصة موسى والخضر

المطلب الأول: الأسلوب الحجاجي المتبع في قصة موسى والخضر

بعد أن بينا في المبحث السابق مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح، وذكرنا أنواعه في الدراسات الألسنية والحجاجية، نخلص الآن إلى محاولة تطبيق ما تقدم من نظريات على ما نحن بصدد بحثه، وهو أسلوب الحجاج القرآني في قصة الخضر وموسى عليهما السلام.

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن القرآن الكريم اتبع في المحاور التي دارت بين موسى والخضر عليهما السلام أسلوب الحجاج المؤسسة على بنية الواقع، فأي أنواع هذه الحجج يمكن تطبيقه على القصة؟

للإجابة على هذا السؤال يستحسن بنا أن نستعرض - بنوع من التفصيل - أنواع الحجج المؤسسة على بنية الواقع، بعد أن تعرضنا لها مجملة في المطلب الثاني من المبحث السابق، محاولين توضيح الطريق المناسب إجراؤها على موضوع البحث.

وعلى هذا فإن الحجج المؤسسة على بنية الواقع تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- حجة روابط التزامن أو التواجد.

- حجة الغائية.

²³ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصرة، الناشر: دار الكتاب الجديد المتحدة - بنغازي

- ليبيا 2008، الطبعة: الأولى، ص: 130.

²⁴ - نفس المرجع، ص: 130.

²⁵ - ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 130.

²⁶ - احمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، كلية الآداب - جامعة

السنانية - وهران - الجزائر 2008 - 2009، ص: 72 - 73.

- حجة روابط التابع أو التعاقب.

أولاً: حجة روابط التزامن أو التواجد (التصاحب)

تقوم حجة التعايش على العلاقة بين المصدر وما ينتج عنه، وتندرج تحتها أمور عديدة منها: التداخل بين الشخص والعمل، وعلاقة الحجة بالسلطة مهما كان نوعها، وعلاقة الرمز بأطرافه المكونة له²⁷.

وهناك من حصرها واختزلها في "علاقة الذات بصفات أو الشخص بأفعاله... وتتمثل في تفسير حدث أو موقف والتنبؤ به انطلاقاً من الذات التي يعبر عنها أو يجليها ويوضحها"²⁸.

وتظهر في سياق وصفه تعالى لبني إسرائيل في قوله تبارك وتعالى: "وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ"²⁹.

فالله سبحانه وتعالى وعد بني إسرائيل الجزاء الحسن بصبرهم على ما لحقهم من البلاء والأذى على يد فرعون وضعفهم في مواجهته، فلم يتحقق لهم الفوز والنجاة إلا بعد صبرهم على إذلال فرعون لهم، الأمر الذي يمثل حجة التعايش القائمة بين بني إسرائيل وأعمالهم وصفاتهم³⁰.

أما الحجة التي تقوم على علاقة الشخص بأفعاله والتي "تتبنى في جوهرها على اعتبار الصلة وثيقة بين أي شخص وأعماله وخاصة على مبدأ ثبات الشخصية، بحث إن قامت على فعل معين أو اتخذت موقفاً محدداً، فلأنها عرفت بخصال معلومة منذ زمن بعيد وستظل كذلك ما بقيت على قيد الحياة"³¹. فنظيرها في قصة موسى عليه السلام قوله تعالى: " وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا"³². فموسى وصف بالشفاعة لأخيه عندما طلب من الله تعالى أن يجعله وزيراً له فجعله نبياً، ومن صفاته الصبر³³.

ثانياً: حجة الغائية:

يعتبر الخطاب الحجاجي غائياً، إذ يسعى المحاجج من خلاله إلى بلوغ غاية التأثير والإقناع، ويتحقق التأثير والإقناع عن طريق الحجة الغائية، التي تتمظهر من خلال الأحداث المعيشة واقعيًا، ويكون هدفها بلوغ غاية معينة، لأن قيمة الشيء تتصل بالغاية

²⁷ - ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، م، س، ص: 130 - 131.

²⁸ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، م، س، ص: 228.

²⁹ - الأعراف، الآية: 137.

³⁰ - ينظر: أحمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، م، س، ص: 88.

³¹ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، م، س، ص: 229.

³² - مريم، الآية: 53.

³³ - ينظر: أحمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، م، س، ص: 89.

التي تكون وسيلة، ومن ثم تحتل الغاية مكانة هامة لتبرر الوسيلة، ونظير ذلك قوله تعالى في قصة موسى: " وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعُرْقُ قَالَ أَمُنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)"³⁴.

أي بعد أن استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم بالخروج منه، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم ولم ينج منهم أحد³⁵.

ثالثاً: روابط التتابع أو التعاقب (الحجة السببية والحجة البراغماتية):

تتمثل روابط التتابع أو التعاقب في تلك الروابط القائمة بين الأحداث على أساس سببي، وتكون فيها «الظواهر منتسبة إلى نفس الطبيعة»؛ أي أن أي فعل يرتبط بفعل آخر يتقدم عنه أو يتأخر، فالعلاقة الأخيرة المترتبة عن تلازمها هي التي تسمى الحجة البراغماتية.

وتتطوي روابط التعاقب أو التتابع في الخطاب القرآني على غاية دينية نبيلة، وهي إحداث التأثير في المتلقين للتجاوب مع المقررات العقائدية للقرآن³⁶.

روابط التعاقب أو التتابع الحجاجي اتبعه القرآن الكريم في كثير من مواضعه وبالأخص هنا في قصة موسى والخضر، موضوع بحثنا، وسنحاول تبين ذلك من خلال المطلب الآتي:

المطلب الثاني: روابط التتابع أو التعاقب في قصة موسى والخضر³⁷

لقد اتبع القرآن الكريم - كما بينا آنفاً - في قصة موسى وفتاه والخضر، الأسلوب الحجاجي القائم على روابط التعاقب أو التتابع، وقد خصصنا هذا المطلب لشرح ذلك وتبيينه.

تبدأ القصة بقوله تعالى: " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاةً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا

³⁴ - سورة يونس.

³⁵ - ينظر: احمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، م، س، ص: 82.

³⁶ - ينظر: احمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، م، س، ص: 74.

³⁷ - ينظر في هذا الباب: المرجع السابق، ص: 74 وما بعدها.

(70) فَأَنْطَلَقًا حَتَّى إِذَا رَكِبًا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَأَنْطَلَقًا حَتَّى إِذَا لَقِيَ غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَأَنْطَلَقًا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رَحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82) 38.

فسياق هذه الآيات يوجز لنا مجموعة من الأحداث. تتعالق فيما بينها برابط سببي، مجسداً في الصبر على طلب العلم. فموسى - عليه السلام- بعد أن لقي الخضر مباشرة استأذن منه في اتباعه شريطة أن يقتبس من ضياء علمه اللدني ليهتدي به. وكان الخضر أعلم من موسى وهي تلك العلوم التي حصلت عنده من عند الله من غير واسطة. الأمر الذي أدى بموسى عليه السلام- إلى طلب مصاحبة الخضر.

فلو عدنا إلى تقصي أحداث هذه القصة، وجدنا أنها تقوم على ثلاث أفعال رئيسة قام بها الخضر وهي:

1- خرق السفينة.

2- قتل الغلام.

3- إقامة الجدار.

كانت هذه الأحداث كلها مستتكرة من طرف موسى -عليه السلام- في ظاهرها، لأنها كانت مخالفة للأعراف الإنسانية. وللشرائع السماوية التي ألفتها الأمم السابقة. كما طبعت تلك الأفعال بهالة من الغموض، يشير ظاهر الأول والثاني منها إلى التورط في اقتراف الفساد والزيغ والباطل، في حين يدخل ظاهر الفعل الثالث منها في دائرة رد الفعل المتجانف، وحدود المنطق. وإن كانت هذه الأفعال الإنجازية في مضمونها صوراً حجاجية تحمل ضمناً سر العلم الخفي الذي أيد الله به الخضر وخصه به، لأن تأويلاتها التي خلص إليها في النهاية جاءت بحقائق اجتماعية، ساهمت في بناء المجتمع والحفاظ على وحدته وتماسكه وإرساء قواعده الإيمانية.

وفي الإمكان توضيح تلك الأحداث وترابطاتها التي أدت إلى تعالقها فيما يأتي:

1. الفعل الإنجازي الأول (الخضر): " فَأَنْطَلَقًا حَتَّى إِذَا رَكِبًا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا... (71)".

38 - سورة الكهف.

- رد فعل موسى: " قَالَ أَخْرَفْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71)".

- فعل باطل مستنكر في ظاهره من طرف موسى.

2 - الفعل الإنجازي الثاني (الخضر): "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ... (74)".

- رد فعل موسى: "قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74)".

- فعل باطل مستنكر في ظاهره من طرف موسى.

3 - الفعل الإنجازي الثالث (الخضر): "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ... (77)".

- رد فعل موسى: "قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)".

- فعل منطقي في ظاهره مقبول من طرف موسى، وإن كان ورود اللفظ على المعنى المجازي ولا يحتمل منه غير ذلك، فلا يمكن أن يحمل على الحقيقة، ووجه الاستدلال ظاهر حيث إن إسناد الإرادة إلى الجدار، وهو من جنس غير العاقل لا يكون إلا من باب المجاز، في قوله تعالى: "فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ"، والمعنى في سياق هذه الآية أن الجدار مائل ومشرف على السقوط وهذا استدلال قوي والمعنى في سياق هذه الآية أن الجدار مائل ومشرف على السقوط وهذا استدلال قوي إلا أنه اعترض عليه بمقابلته بأجر.

فهذه الأحداث الثلاثة كلها أسفرت عن ردة فعل عكسية سريعة من لدن موسى - عليه السلام -، وذلك قوام النفس البشرية، كما أُنذِر به تعالى: " خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) "39.

التي تطبعها الحالات النفسية المختلفة، وتضطرب فيها الغرائز البيولوجية. كحب الاطلاع، وحب المعرفة، والقلق، والانفعال، وغيرها.

فرغم ما كان يعترى هذه النفس (نفس موسى) من أدب ولطف وتواضع والتزام بالطاعة والصبر، إلا أنه كان معلقاً وعده بمشيئة الله، إدراكاً لحزونة الأمر، وهو الشرط الذي وضعه الخضر للموافقة على صحبة موسى له، إذ قال له: من شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غيبي فحميت وأنكرت في نفسك أن لا تفاجئني بالسؤال، ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من آداب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع. ولكن مهما حاول موسى ضبط نفسه، والتخلي بميزات الرصانة والهدوء والثقة، إلا أنه يتعجب بالاحتجاج في كل مرة بالحقيقة، وهي من سمات البشرية التي فطروا عليها.

39 - سورة الأنبياء.

تميز ذلك الاحتجاج، بعد أن بلغ أوجه، بكونه السبب في إنهاء أطوار الرحلة بين موسى والخضر، لأن الخضر اعترض مبدئياً بوحي من الله تعالى على صحبة موسى، واحتج بعدم استطاعته الصبر على السؤال. وبعد أن أعلن الخضر إنهاء العلاقة، شرع في البرهنة على صحة أفعاله، وهو يقر بحقيقة علمه الباطني الذي أودعه الله إياه، واتضح ذلك في جملة من التأويلات نوجزها كما يأتي:

1. خرق السفينة..... "أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79)

2. قتل الغلام..... "وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81)".

3. إقامة الجدار..... "وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)".

من خلال هذه التأويلات حاول الخضر تبرير أفعاله المتتابعة بحجج تتعلق بأصحاب السفينة، والدي الغلام، واليتيمين للرجل الصالح، وكل ذلك كان بإلهام من الله تعالى. وفيه دلالة لمن قال بنبوته الخضر عليه السلام.

فهذه الأحداث المتعاقبة جاءت كلها معللة بحجج لها صلة بالواقع الذي كان يحكم منطق التعايش في زمن موسى والخضر. والرابط السببي يتمثل في طلب المصاحبة بغرض نبيل العلم مع محاولة الصبر، إلا أن الإقرار بحقيقة عدم الاستطاعة كان أشد وأقوى، لأن الإلهام أو النبوة حقيقة ظاهرة لا يمكن الحياد عنها أو العدول عما توحى به.

استنتاجات:

من خلال ما تقدم من جولة في معاني الحجج ومذاهبه بين القديم والحديث ومحاولة تطبيق تلك المفاهيم على المحاورة الحجاجية التي دارت بين موسى والخضر عليهما السلام، يمكن استنتاج عدة أمور وهي:

- لقد كان تحديد مفهوم للحجاج محل جدل وأخذ ورد بين العلماء قديما وحديثا، منهم من جعله مرادفا للجدل والبرهان، ومنهم من جعله مرادفا للخطابة، وهناك رأي آخر يجعل مفاهيمها متباعدة متباينة، وآخر لم يرض له أن يبتعد عن الخطابة ولا أن ينصهر فيها؛ وجعله "خطابة جديدة".

- سعى بيرلمان إلى إخراج المفاهيم التداولية الحجاجية من صلب البلاغة التقليدية الغربية، وإكسابها طاقة حجاجية، يسعى المحاجج إلى توظيفها في خطابه المتنوعة لتحقيق عملية الإقناع، الشاهد والمثال والقدرة، والتناسب وغيرها، وهو ما أدى به إلى تسمية هذا النزوع بالبلاغة الجديدة.

- إن أهم ما تقوم عليه الدراسة الحجاجية في القرآن الكريم، هو تقديم الأطروحات التي تدعو العقول إلى التدبر الموضوعي والواعي في قضية التوحيد، بغية الاقتناع وبناء الرأي المعقول، فهو يمثل قوة تدفع المخاطب إلى التفكير والتأمل من أجل الحصول على الإقرار بحقيقة معينة، يتم ذلك بواسطة أدلة مخصوصة.
- تكمن أهمية الحجاج فيما يولده من اقتناع لدى المتلقي، الذي لا يتأتى له إلا باستعمال اللغة، مما يؤكد أن نظرية الحجاج في اللغة تنطلق من فكرة أننا نتكلم عامة بقصد التأثير، وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية.
- الحجاج بطبيعته هو فعل لغوي غائي، يتحقق بين نوات فعالة ونشيطة، يسعى المرسل من خلاله إلى حمل المتلقي على الإذعان، والسعي إلى إقناعه بشتى الآليات المختلفة حسب المقام؟.
- يختلف الحجاج باختلاف الطبقات المقامية التي ينتزل فيها، ويفرض على المحاجج اختيار التقنيات الحجاجية بتركيبتها ومعانيها المختلفة والمتعددة التي تتماشى والسياقات التي تنتج فيها الخطابات، وتنسجم تمام الانسجام مع غاية الخطاب الحجاجي.
- تنطوي روابط التعاقب أو التتابع في الخطاب القرآني على غاية دينية نبيلة، وهي إحداث التأثير في المتلقين للتجاوب مع المقررات العقائدية للقرآن، وروابط التعاقب أو التتابع الحجاجي اتبعه القرآن الكريم في كثير من مواضعه وبالأخص هنا في قصة موسى والخضر، موضوع بحثنا.
- في الحجاج بين موسى والخضر، وحوار بعضهما لبعض، حكمة ربانية، وهي أن الله تعالى يخفي حقيقة الأفعال التي يبدو ظاهرها مخالفا للشرع، لحكمة منه في ذلك، لا أن الأمر الظاهر المحرم صار حلا فيما بعد بمجرد، وإنما لقرينة ونكتة خفيت على المتلقي لمقتضى أمر منه سبحانه وتعالى، وهو الفعال لما يريد.

خاتمة:

- بعد هذا السرد لمفهوم الحجاج وأنواعه، والتعريح على طريقته التي اتبعها القرآن الكريم لإثبات رسالته بواضح البرهان، والكشف عن مستوى بلاغته وإعجازه.
- وبعد تلك الرحلة البحثية بين أغصان روضة محاوره موسى والخضر عليهما السلام، توصل البحث إلى نتائج تلك الاستنتاجات المتقدمة ليفتح بها آفاقا بحثية أرحب وأوسع أمام الدرسين للقرآن الكريم من الناحية البلاغية عموما، والناحية الحجاجية بشكل خاص.
- وبما أن الكمال المطلق لا يكون إلا لله تعالى، بإنني أعتذر عن أي نقص أو خلل صدر مني سهوا أو تقصيرا، خاصة في هذا المقام الذي يتطلب الكثير من الحذر خوف الزلل والخلل.
- والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن سيده، (2000م). المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى.
2. ابن منظور، (1414 هـ). لسان العرب، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة.
3. عرابي، امحمد. (2008 - 2009). البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، كلية الآداب - جامعة السانبة - وهران - الجزائر.
4. الدريدي، سامية. (2008م). الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيتيه وأساليبه، الناشر: عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العلمي للنشر والتوزيع.
5. الحباشة، صابر. (2008). التداولية والحجاج، مدخل ونصوص، ط: دمشق - سوريا، ص: 17.
6. زواقة، عبد الكريم. (2010 - 2011م) بلاغة الحجاج في القرآن الكريم، سورة الكهف نموذجاً، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي - الجزائر.
7. صوله، عبد الله. (2001م). الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات: كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة - تونس، الطبعة الأولى، دار الفارابي.
8. الشهري، عبد الهادي بنزاف. (2001م). استراتيجيات الخطاب، عن سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، وزارة الثقافة والاتصال المغربية، السنة: 25، العدد: 62 - 63.
9. الطلبة، محمد سالم محمد الأمين. (2008م). الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصرة، الناشر: دار الكتاب الجديد المتحدة - بنغازي - ليبيا، الطبعة: الأولى.
10. الطلبة، محمد سالم محمد الأمين. (2010م). الحجاج مفهومه ومجالاته (نصوص مترجمة) عالم الكتاب الجديد، الأردن.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v4.38.7